البابوية الجديدة وسؤال الحداثة

عبد السلام الطويل *

شكلت وفاة البابا (جون بول الثاني Jean Paule II) وخلافته من طرف البابا (بونوا السادس عشر 1)(Benoît XVI) الكردينال (جوزيف راتزنجر Joseph Ratzinger) - حدثا تاريخيا استثنائيا استقطب اهتماما عالميا رسميا وجماهيريا كبيرا، أسهمت وسائل الإعلام المعولمة في تغطيته و نشره على أوسع نطاق. كما شكل مناسبة لمراجعات فكرية وسياسية طرحت جملة من التساؤلات أهمها:

- هل يمكن قراءة هذا الحدث، بالنظر إلَى الزخم الذي رافقه في قلب أوروبا، على أنه مؤشر على عودة أقوى إلى الدين في أوروبا والغرب خصوصا والعالم المسيحي عموما؟ لدرجة جعلت ريجيس دو بري (Régis Debray) يتساءل: هل نحن بصدد عودة للأديان كي تنتقم لنفسها مما حاق بها من تهميش وإقصاء (Assistons-nous à la vengeance des religions ?)(2) لتتحقق بذلك نبوءة مارلو (Malraux) بأن القرن الحادي والعشرين سيكون قرنا دينيا أولا يكون.

- ما هو الوضع الذي سوف يحتله الدين في الحياة العامة الأوروبية، وكيف ستتحدد علاقته بالسياسة خصوصا وبالحداثة وما بعد الحداثة عموما؟

- إلَى أي حد سيعزز هذا الحدث المرجعية المسيحية للاتحاد الأوروبي بعد أن تم رفض الإحالة عليها في مشروع الدستور الأوروبي؟

- هل بإمكان هذه الصحوة الدينية، إن كانت كذلك، أن تؤثر جوهريا في هوية ومصير مشروع الحداثة الغربي القائم على القطيعة النسبية مع الدين؟

هذه الأسئلة وغيرها كثير، سوف تحاول هذه النافذة ملامستها بطريقة غير مباشرة من خلال محاولة رصد أهم مواقف البابا الجديد من القضايا الآتية:

1 - بين الإيديولوجيا والأخلاق.

2 - بين العقل والإيمان.

3 - مفهوم البابا الجديد للعلمانية.

4 - مفهومه للحرية.

5 - موقفه من التحدي ما بعد حداثي.

6 - موقفه من الحوار الإسلامي المسيحي.

أولا: بين الإيديولوجيا والأخلاق

يذهب صوفي دو رافينيل (Sophie de Ravinel) إلَى أن الكنيسة الكاثوليكية, التي تعد أول دولـة عالميـة في التاريخ (La premiere Etat-Monde de l'histoire), أمست بفضـل البابـا جـون بـول الثـاني فاعلاـ أخلاقيـا لايقبـل المنازعـة (u n acteur moral incontestable) , مؤكداً أن للكنيسـة كلمتهـا واجتهادهـا وإسـهامها المتميز في معـالجة قضايا السلام, والتنميـة,والعولمـة..وفي هذا الإطار يؤكد رئيس أساقفة ساوباولو كلود هوم (L'archevêque Claude hummes) أن الكنيسـة "ستضل كنيسة التضامن, كنيسـة الفقراء (...) وسـنواصل احتجاجنـا وإدانتنـا بشـكل أكبر لأـن الفقر تفـاقم مع العولمـة, ومع انفتاح الأسواق".

ومـع أن الكاردينـال كريسـتوف شونبِورن (Christoph schönborn) رئيس أساقفة فيينا ينفي أن تمثل ظاهرة العولمة شرّا في حد ذاتها بالنسـبة إلى الكنيسة الكاثوليكية, التي تعد بدورها كيانا ما فوق وطني (Supranationale), إلا أنه يعتبر أن السعي إلى تجاوز الحرب الاقتصادية (L a guerre économique) يقتضـي اتخـاد مجموعـة من الإجراءات والتدابير الوقائية الجديدة على الصعيد العالمي.

وفي علاقته بمنظمـة الأمم المتحـدة فإن الكرسـي الرسولي (Le Saint-Siège), الذي يحتل موقع مراقب, يقيم علاقات تفاعل نقدي مع هذه الأخيرة؛ حيث سبق للبابا أَنْ دُعِيَ إلى أن ترتفـع المنظمـة مـن مجرد "مؤسـسةِ بـاردة مـن طبيعـة إداريـة" (froide institution de type administratif) إلى مركز أخلاـقي (Centre moral) تستشـعر معه أمم العـالم أنهـا في بيتهـا, تسـهم في بلورة وعيها المشترك بالوجود في كنف "أسـرة أمم" واحـدة (la conscience commune d'être famille des nations développant)(3).

هـذا على المسـتوى العـام, أمـا بالنسـبة لرتزنجر فقد تـأثر في حيـاته بحدثين تاريخيين مختلفين لكنهمـا يحملان، من وجهـة نظره، التهديـد التوتاليتاري نفسه (porteurs de la même nenace totalitaire) ؛ يتعلق أولهمـا بالنازيـة الـتي كـان للمفارقـة عضوا في شبيبتها، و هوما شكل عنصـر تشكيك و تحفظ من طرف العديـد من الجهات في مقدمتهم اليهـود, رغم أن -جل إن لـم يكن كل- الشـباب في ظل ألمانيا النازية كانوا أعضاء بشـكل تلقائي وضـروري في الشبيبة النازية, وبهذا الخصوص يؤكد دانيال شـنيدرمان (Daniel schneidermann) أن رتزنجر كان بالفعل عضوا في الشبيبـة النازيـة في سن الخامسـة عشرة من عمره, إلاـ أنه كان مجبرا على ذلك (contre son gré) بهدف الحصول على تخفيضـات في رسـوم دراسـته الـتي بـدونها كـان مـن غير الممكـن عليـه, في ظـل النظام النـازي, اسـتكمالها. فضـلا عن أن أسـرته قـدعبرت, بمـا لايـدع أي مجال للشك, أنها ضد النازية(4). ويتعلق ثانيهما بانتفاضة الطلاب الألمان سنة1968م.

ورغم أنه لم يخض مواجهة مباشـرة و ساخنة مع الماركسـية على غرار سـلفه جون بول

الثاني، إلا أنه يعتقد أن الإيديولوجيا الماركسية تؤدي إلى تكريس الظاهرة التوتاليتارية نفسها التي خضع لتاثيراتها السلبية. و مع تفهم جوي سورمان (Guy Sormane) لما تعرض له رتزنجر من معاناة من جراء النظام النازي إلا أنه يعبر عن حيرته وعدم استيعابه لمغزى الاضطهاد الذي تعرض له من جراء الانتفاضة الطلابية في أثناء تدريسه للثيولوجيا بالجامعة، وهوما اعتبره من قبيل التزيد والمبالغة رغم الطبيعة العنيفة التي ميزت حركة الاحتجاج الطلابية في ألمانيا مقارنة بفرنسا.

و في كلتا الحالتين فإن "الطبيعة البربرية " لهذه الشبيبة لم تتبد له إلا بفعل افتقارها للعمق الأخلاقي، فما أن تختفي الأخلاق حتى تحل محلها الإيديولوجيا (qụand la morale disparaît l'idéologie prend sa place) الأمر الذي يرقى لديه إلى مستوى قانون طبيعي للإنسانية (Loi physique de l'humanité). ومن ث م فإن البربرية (La barbarie), والإيديولوجيا (l'idéologie), والعنف التوتاليتاري, (La violence totalitaire) لايمكن القضاء عليها إلا من خلال إعادة التجدير الأخلاقي (réenracinement moral).

لايتصور بونوا السادس عشر وجود الأخلاق في انفصال عن الله, أي عن الدين (il n'est de morale que de dieu) وهو ما جعل جوي سورمان ينفي أن يكون رتزنجر ذا نزعةِ إنسانية (Humaniste) مادام يعتبر أن الإنسان لايستطيع أن يرسي أسس منظومة أو مرجعية أخلاقية بناء على منطق تفكيره العلماني والفلسفي. فإذا كانت الأخلاق إنسانية بشكل حصري, فلن تكون,تبعا لذلك, إلا نسبية تختلف باختلاف المواقف والآراء.

ومن ثم, فإن صراع جوزيف راتزنجر ضد لاهوت التحرير أَو الثيولوجيا التحريرية, وضد الإنسانيةاللائكية, (L'humanisme laïc), والأخلاق الحداثية (Les moeurses modeniste) يندرج ضمن المسلمة التالية: "إذا لم تكن هناك أخلاق بدون مطلق فلا يوجد مطلق بدون إله".

إلى هذا الحد يعتبر سورمان أننا في فضاء الفلسفة وبصدد نقاش تاريخي لايحول دون مشاركة غير الكاثولكيين وغيرِ المؤمنين عموما من المشاركة في مجرياته.أما بعد ذلك, فإن سلطة الأمر والنهي ترجع إلى الدين وحده, وهذا أمر غير قابل للتفاوض؛ فمادام الله قد أوحى برسالاته إلى الناس فما عليهم إلا قراءة وإعادة قراءة النصوص, وتحديدا العهدين القديم والجديد, تلك هي غاية المؤمن وهدف الثيولوجيا. ففي مواجهة النسبية الأخلاقية (relativisme moral) التي بمقتضاها "كل شيء يغدومباحا مادام لايوجد هناك إله" (tout est permis si Dieu n'existe pas) تعترض الأديان السماوية بحجة أن كل شيء مكتوب (5)(tout est écrit).

رغم وعي البابا بونوا السادس عشر بعمق الإنقسام بين الإيمان وبين الإلحاد إلا أنه شديد الوعي في المقابل بأن الجميع يعيش في هذا العالم وأن للجميع مسؤولية مشتركة..من منطلق أن الإنسان كيفما كان فهو كائن أخلاقي يحمل بين جنبيه رسالة أخلاقية (Un

message moral) وهومايبعث فينا نزوعا من أجل الحب وضد الكراهية والحقد, من أجل الحقيقة وضد الكذب (Une propension pour l'amour et contre la haine,pur la verite et contre le mensonge) وهذا النزوع جِبِلِّيٌّ في الإنسان ويجد مصدره في أصل خلق الإنسان أي الله(6).

ولذلك يعتقد أن الإيمان والالتزام بالقيم الإنسانية إنما يجد أصله في هذا النزوع الطبيعي الكامن (Une présense caché).

ورغم دفاعه عن الحملات التبشيرية المسيحية في أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية, معتبرا أن المبشرين المسيحيين كانوا دوما المدافعين الحقيقيين عن الكرامة الإنسانية (Ladignité humaine)؟! وأنهم عملوا على إنقاد جزء مهم من الثقافات القديمة عبر تدوين وتقعيد اللغات الأهلية (Les langues indigénes) ووضع القواميس, إلا أنه يعود ليقر أن بعض المشاكل الحالية لإفريقيا تعود إلى كون العقلانية الغربية (Le rationalisme occidental) قد أمعنت في تحطيم القوى الأخلاقية التقليدية دون أن تعمل على استبدالها بقوى جديدة.

(detruit les anciennes forces morales sans offrir autre chose). ومع ذلك فقد اعتبر,في نزعة تمركز واضحة على الذات, أن الرسالة المسيحية (La mission chrétienne) هي التي تستطيع الدفاع عن إرساء مجتمعات حديثة مرتبطة بجذورها الخاصة(7).

ثانيا: بين العقل والإيمان

منذ عصر الأنوار لم يعد الإيمان الرسالة المشتركة للعالم(La mission commune du Monde) (كما كان عليه الحال في العصور الوسطى, حيث شكل العلم منظورا جديدا للحقيقة (nouvelle perception de la réalitė) يعتبر أن المعرفة الموضوعية هي المعرفة التي يمكن التدليل عليها تجريبيا في المختبر, وما عدا ذلك مما يتصل بعالم الغيبيات كالله والأخلاق, والخلود فقد تمت إحالته إلى دائرة المعرفة الذاتية (la devient la vertu de la subjectivitė). كما أصبحت النسبية فضيلة الديمقراطية (Democratie relativisme).

ومع ذلك فقد أكد جوزيف راتزنجر أن الإيمان المسيحي (la foi chrétienne) يستبطن مضمونا موضوعيا (un contenu objectif), كما حاول التدليل على محدودية النسبية, معتبرا أن التسليم المطلق بها, لِيس فقط في الدين وإنما في كل ما يتصل بالمسألة الأخلاقية, سوف يؤدي لا محالة إلى تدمير المجتمع، لأن النسبية المطلقة عادة ما تؤدي إلى الفوضى والتوتاليتارية (L'anarchie ou le totalitarisme).

ذلك أن الإسراف في العقلانية سيؤدي لا محالة إلَى الإجهاز على العقل نفسه, كما سوف يرسخ الفوضى (L'anarchie)؛ إذ أنه حينما يمعن كل واحد في الانغلاق على عقلانيته

الخاصة فإن القواعد الجوهرية للعيش المشترك تكون عرضة للاختفاء. أكثر من ذلك فقد اعتبر الكردينال جوزيف رتزنجر أن القواعد الأخلاقية يجب ألّا تخضع لمنطق الأغلبية والأقلية وإلا أصبحت تحت رحمة التحولات السياسية التي بمقتضاها تتغير المنظومات والقيم الأخلاقية بتغير الأغلبيات الحاكمة(8).

ومن جهة أخرى فلم يتردد في التعبير عن تشككه إزاء مفهوم التطور فهناك بطبيعة الحال تطور على مستوى معارفنا العلمية والتقنية, غير أن هذه الإنجازات لا- يترتب عليها بالضرورة تطور مماثل على صعيد القيم الأخلاقية, ولا على صعيد قدرتنا على الاستعمال والتوظيف الجيد للسلطة التي تخولها لنا هذه المعارف, على العكس من ذلك فإن السلطة (Le pouvoir) يمكن أن تشكل عامل هدم (un facteur de destruction), ذلك أن نسبية وهشاشة العقل والأخلاق من شأنهما أن يجعلا- أي مجتمع قابلا- لأن يدمر ذاته (S'autodétruire) . ومن هنا تشديد راتزنجر على ضرورة السعي لإيجاد القوى الأخلاقية القادرة على مقاومة الشر.

وأمام التجاوزات الأخلاقية للبحث الطبي والعلمي (الاستنساخ, الإجهاض, أطفال الأنابيب, استعمال وسائل منع الحمل, الاتجار في الأعضاء البشرية..) من منظور الكنيسة الكاثوليكية ورغم إدانته لها إلا أنه لا يؤمن بجدوى وضع قيود خارجية (قانونية) على هذه الأبحاث بقدر تشديده على أهمية القيود الداخلية الداعية إلى احترام كرامة الإنسان,ومن ثم فإن أي تطور يتم على حساب كرامة الإنسان يعد غير مبرر وغير مقبول؛ كأن تطبق تجارب علمية على أناس يعتقد العالم الغربي أنهم من درجة إنسانية أدنى منه, وفق منطق يتعامل مع الجنين(foetus)), والرحم, على سبيل المثال, بوصفها مجرد أشياء.

وفي هذا الإطار يعتقد أن من أبرز المهام التي يتوجب على البابوية الجديدة النهوض بها هو العمل على تجاوز الأزمة الحضارية للغرب الذي بات معها يشك في ذاته (doute de lui même)ولم يعد يؤمن بأي أساس أخلاقي للإيمان المشترك, ليقع فريسة نسبية وذاتية مطلقتين.

وفي رده على الفيلسوف الإيطالي (Paolo Flores D'arais) الذي يستخلص من تشديد المسيحية على موضوع بعث الموتى (la résurrection des morts) تغليبها للإيمان والنص على العقل, يؤكد جوزيف راتزنجر أن الإيمان المسيحي فضلا عن دعوته للعقل (fait appel à la raison) فهو يتجاوزه من خلال الحب؛ فمع أن الحب ليس ضد العقل إلا- أنه يتجاوزه كثيرا. كما أن الله عقل (Logos) ؛ فهو العقل الخلاق (La raison crĕatrice).

وهو الكلمة (La parole) لأن اللغوس ليس مجرد عقل, إنه عقل يتكلم (Raison qui parle) يستجيب ويتفاعل, كما أن اللغوس هو كذلك الحب (Logos est aussi amour)..

ومن ثم فإن المسيحية, حسب الكاردينال راتزنجر -بابا الفاتيكان الحالي- ليست فلسفة معقدة تقادمت على امتداد الزمن.. وإنما هي التلقي عن الله والتأثر بهديه وتبليغ رسالته والشهود عنه, وتبعا لذلك فإن الكنيسة التي لا تعمل إلا على استمرار وجودها كنيسة لاطائل منها ولا خير فيها مهما تضخمت إمكانياتها, إذ لايمكنها أن تعيش وتنتج (fructifier) إلا إذا كانت تستشعر أولوية الله وأسبقية حبه لديها. وهوما لايمكن أن يتم إلا على أساس يقين عقلي.

وهو مِا يفسر دعوته للكنيسة كي تطلق نقاشا حول الأسس العقلية التي يقوم عليها الإيمان أو عدم الإيمان. من منطلق أن الإيمان ليس عدوا للعقل وإنما رديفا له يدافع عن معياريته وسموه (sa grandeure). مؤكدا أن الإيمان يجب ألا ينطوي على ذاته, كما يجب ألا يتقلص ويختزل في نظام رمزي يرتهننا, وإنما يجب أن ينهض برسالته في الهداية(9).

رغم أن راتزنجر يؤكد عدم تعارض العقل والنص الديني, إلا أنه لا يتردد في إعطاء الأولوية للنص في حالة تعارضهما. وهنا يعترض مناظره (Paolo Flores D'arais) كاشفا كيف أن مفتِاح الثيولوجيا المسيحية الكاثوليكية لهذا التعارض يكمن في توسلها بالقانون الطبيعي أو القانون الأخلاقي الطبيعي (La loi morale naturelle) المطبوع سلفا في الإنسان وفي الواقع الإنساني نفسه؛ بحيث إن القوانيين الطبيعية تبدو بمثابة كروموزومات كامنة في الكون والحقيقة, وما على العِقل إلا اكتشافها والخضوع لها. وهو ما يعتبره باولو خاطئا كليا وخطيرا, ذلك أن السعي إلى تحديد أخلاق خاصة أسمى وأنبل من غيرها من خلال قانون طبيعي يستبطن كل مخاطر عدم التسامح (Porte en soi tous les dangers de l'intolérance).

وهو ما كان داعيا لتعبير راتزنجر عن استعداده لإعادة النظر في مدى صلاحية وعقلانية مفهوم الطبيعة كمفهوم فلسفي دخيل على الثيولوجيا المسيحية, والذي من شأنه أن يضع قيودا على الإرادة الإنسانية, ليؤكد, تبعا لذلك, أولوية العقل على المادة, ومن ثم حضور العقل في هذه المادة وما يرتبط بها من خلق(10).

ومع ذلك فإن العقل والعقلانية في كنف المسيحية وغيرها من الأديان تظل خاضعة لمرجعية معيارية نصية أعلى تحدد الغايات والمِقاصد الكبرى للوجود الإنساني, وهو ما ينسجم مع قناعة راتزنجر بأن الإنسان يحتاج إلى معرفة الله, وأن الحقيقة قد تجلت في السيد المسيح, وأنها ملك للجميع؛ فهي ليست ملكية خاصة لأي أحد كان، ولذلك يجب أن تكون مشاعة للجمي—ع(11).

ثالثا: مفهوم البابا الجديد للعلمانية

ينطلق البابا جوزيف راتزنجر من مفهوم إيجابي للعلمانية كظاهرة جديدة في التاريخ, معتبرا أن المسيحية قد أقرت التمييز بين الدين والدولة.. بين "مجال الرب" (Domaine

de Dieu) ومجال قيصر (Domaine de César), وهو التمييز الذي يكمن في أصل مفهوم الحرية الذي تطور في أوروبا والغرب عموما.

غير أن هذا لايعني أن الدين يعد أمرا خاصا بشكل حصري, إنه يعطي للإنسان تصورا أَو رؤية (Vision) تستوعب حياته كلها وليس فقط حياته الروحية (spirituelle). دون أن يعني ذلك أن المؤسسة الدينية (L'institution religieuse) مؤسسة توتاليتارية (Totalitaire)، لأنها محدودة بسلطة الدولة, رغم أن هذه الأخيرة لايمكنها أن تأخذ بزمام كل شيء؛ فهي الأخرى مقيدة بحرية العقيدة (Il est limité par la liberté de la religion) , فالدولة ليست كل شيء كما أن الكنيسة ليست كل شيء في هذا العالم. فالعلمانية بهذا المعنى مسيحية بشكل عميق (L a laïcité est profondement chrétienne).

ومع ذلك يرفض راتزنجر مفهوم العلمانية الذي ينزع إلَى إلغاء أي وجود للدين في الحياة العامة؛ فمع أن للمؤسسات السياسية والمؤسسات الدينية فضاءاتها الخاصة إلا أن القيم الجوهرية للإيمان (les valeurs fondamentales de la foi) يجب أن تبرز وتتجلى في الحياة العامة ليس بفعل القوة المؤسسية للكنيسة وإنما بفعل قوة حقيقتها الداخلية. وإذا ما أرادت العلمانية إقصاء الدين فإن ذلك سوف يشكل تشويها للكائن الإنساني (une mutilation de l'être humain)(12).

وتأكيدا لهذا المعنى يقول: "يجب على العلمانية أن تعترف بالتعددية, وأن تسمح بوجود عمومي راسخ للأديان, أما إذا ذهبنا إلى حد إلغاء القيم الإيمانية من المجتمع, وفهمنا العلمانية بالمعنى الوضعي الشامل (positivisme complet) فسوف نعمل على حرمان المجتمع من مقوماته الأساسية, وسوف نصل إلى حالة من العبث (L'absurde) "خاصة إذا ارتقت هذه الوضعية إلى مستوى فلسفة للدولة (Philosophie d'Etat) مغذية للتطرف(13). معتبرا أن تصاعد المد الأصولي يعد بمثابة رد فعل لعلمانية متصلبة (Acharné) ؛ إنه يعبر عن تبرمه بهذا العالم الذي يرفض الله ولا- يحترم المقدسات, ويزعم استقلالية مطلقة, ويعيد تشكيل الإنسان حسب هواه..(14).

رغم الموقف الإيجابي لبونوا السادس عشر (Benoît XVI) من العلمانية من حيث المبدأ إلا أنه يعترض بقوة على مايسميه بالعلمانية الإيديولوجية (Laïcisme Idiologique) التي تهدد بمحاصرة الكنيسة داخل جيتو من الذاتية (getto de subjectivité) وحرمان الحياة العامة من الحقيقة المسيحية. إن مثل هذا الفصل, الذي يعتبره (Benoît XVI) بمثابة تدنيس مطلق (profanité absolue) "سيشكل, بكل تأكيد, خطراً على الوجه الروحي, الأخلاقي والإنساني لأوروبا". وفي هذا الإطار يراهن على أن تكون حيوية الكنيسة في فرنسا قادرة على مساعدة أوروبا في الرد على هذا التحدي. "إن الإيمان المسيحي له ما يلهمه للأخلاق المشتركةL a morale commune) ولبناء المجتمع, فالإيمان، يواصل بونوا السادس عشر, ليس محض شيء خاص وذاتيune chose)

purement priveé et subjective), إنه قوة روحيـة كبيرة "من شأنها أن تغني الحياة العامة.

وفي هـذا السـياق يعتبر أن الإمعان في عـدم الإشارة إلَى المرجعيـة المسيحية لأوروبا في مشـروع الدسـتور الأوروبي يعـد خطـأ كـبيراً مشدداً أن "أوروبـا قـارة ثقافيـة وليس جغرافية" (L'Europe est un continent culturel et non pas géographique) فثقافتها هي التي أعطتها هويتها المشتركة. إن الجذور التي سـمحت بتشكيل هذه القارة هي الجذور المسـيحية". ولذلك لا يخفي راتزنجر أنه وجد صـعوبة في فهم مغزى الاعتراض على الاعتراف بحقيقـة تاريخيـة دامغـة كهذه. يعززها كون النهضـة الأوروبية الحديثة بعد الحرب العالميـة تحققت بفضل رجال سياسة كانت لهم انتماءات مسـيحية قوية؛ كشومان, وإدنـاور, ودوجـول.. وغيرهـم ممن واجهـوا الخراب الـذي أحـدثه توتاليتـاريون ملحـدون ومعـادون للمسـيحية. ولـذلك فقـد اعتـبر أن السـكوت على هـذه الحقيقـة يعـد أمرا غريبا وخطيرا, داعيا إلى اسـتمرار النقاش حول هذه المسألة, معبرا عن خشـيته من أن يسـتبطن هذا الاعتراض كراهية لأوروبا ضد نفسها وضد تاريخها العظيم(15).

وردا على تصـور البابـا للعلمانيـة ونقده المبطن للنمـوذج الفرنسـي تسـاءل برنار ستازي (Bernard Stasi) بلغـة لا تخلو من لمز سـجالي يشـكك في القيمـة الديمقراطية لانتخاب البابـا الجديـد: هـل بمقـدور مسـيحي عادي من عموم الناس أن يعترض على اختيار الهيئة الناخبة للكاردي نالات, سيمـا وقـد تم اختيارهـا للبابـا بأغلبيـة واسـعة؟ ليؤكـد أن ِالعلمـانية لاتتوقف على مجرد ضمان الدولـة لحريـة التفكير والحريـة الدينيـة,وإنما تقوم إلى جانب ذلك على مبدأالفصل بين الكنائس والدولة.

ومـع إقراره أن فرنسـا, على غرار العديـد مـن الـدول, تعرف وجـود علمـانيين متطرفين يعتبرون أن الـدين لا يزال يمثـل العـدو الحقيقي الـذي تجب مواجهته, إلا أنه يسـتبعد أن تعـود أجـواء الصـراع التـاريخي بيـن الكـاثوليكيين والعلمـانيين على إثر إقرار قـانون (1905م). ومع إقراره أن العلمانية قد فرضت نفسـها بشكل عنيف وراديكالي على حساب الكنيسة, وهو ما يفسـر حالـة التحوط والحذر التي حكمت هذه الأخيرة لفترة طويلة, إلا أنه يعود ليؤكد أن لا شـيء يسوغ اليوم عودة مناخ عـدم الثقة (un climat de mefiance) بين الكنيسة الكاثوليكية والعلمانية.

وفي هـذا السـياق يؤكـد, بنزعـة تطمينية لا تخلو من دفاع, أن أغلبية المواطنين الفرنسيين يتشبـث ون بعلمانيـة منفتحـة ومتسامحـة ولا يتقبلون أيـة علمانية مطلقة وتحريضـية كتلك التي حذر منها الكاردي نال راتزنجر. وهو ما يؤكـده الإجماع الإيجابي اللافت للفرنسـيين بخصوص اقتراح لجنـة سـتازي المتعلق بتـدريس "الفعل الديني" ِ(Le fait religieux) في المدارس الفرنسـية. الأمر الذي يشـير, حسب برنار سـتازي, إلى أن فرنسا العلمانية قد باتت على وعي بأن الأديان, بمجرد أن تتخلى عن نزوعها للسـيطرة على الحقل السياسي, يكـون بمقـدورها أن تلعـب دورا مهمـا في حيـاة الجماعـة الوطنيـة (La communauté

nationale) سواء على مستوى الدفاع عن حقوق الإنسان, وترسيخ القيم الثقافية للتضامن, أو على مستوى إغناء المعاني الروحية وإضفاء معنى على حياة الناس "فإذا كانت التعددية الدينية والثقافية عُنْصُرَ غنىً يجب احترامه فإن العيش المشترك وحيوية الجماعة الوطنية تفرض كذلك أن مجموعة من القيم يجب أن تكون مشتركة,وأن تكون موضوع اعتراف واحترام من طرف الجميع"(16).

رابعا: مفهوم بنديكيت السادس عشر للحرية

لا تتمتع الحرية بجدارتها وقيمتها, حسب راتزنجر, إلا إذا ظلت مرتبطة بجوهرها وبرسالتها الأخلاقية (Sa mission éthique). إنها تحتاج إلى مضمونٍ جماعي يمكن تحديده كضمانة لحقوق الإنسان, وبتعبير آخر فإن مفهوم الحرية يحتاج إلى أن يستكمل بمفهومين آخرين هما: الحق و الخير.

ومن جهة أخرى يعتبر "راتزنجر" أننا لا نستطيع أن نطلب الحرية لذاتها فهي غير قابلة للتجزئة و إنما يجب النظر إليها كرسالة بالنسبة للإنسانية جمعاء. ولا يمكن الحصول عليها دون تضحيات (sacrifices)، وتنازلات (renoncements). كما لا يمكن أن تقوم مؤسسات وأن تكون ناجعة دون قناعات أخلاقية مشتركة. و هذه القناعات لا يمكن أن تصدر عن عقل محض إمبريقي (une raison purement empirique) . ففي الديموقراطية المعاصرة لا تعد قرارات الأغلبية في حد ذاتها إنسانية ومعقولة إلا بقدر ما تفترض مسبقا وجود معنى إنساني جوهري (sense humanitaire fondamental)، وهوما يستوجب أخذ العمق التاريخي للثقافة والأحكام الأخلاقية و الدينيةِ (les jugements éthico - religieuses) بعين الاعتبار، فحرمان ثقافة من الثقافات أو أمة من الأمم من إحدى قواها الأخلاقية أوالدينية التاريخية يهدد بانتحارها. ومن ثم فإن العمل على تقوية ودعم الأحكام الأخلاقية الأساسية (les jugements moraux essentiels) وحمايتها دون فرضها بطريقة تحكمية، يبدو في نظر البابا الجديد، شرطا لوجود و صمود الحرية في مواجهة كل العدميات وآثارها الشمولية (tous les nihilismes et a leurs conséquences totalitaires) وفي هذا الاتجاه يرى راتزنجر الرسالة العمومية للكنائس، مؤكدا أن طبيعة الكنيسة تقتضي انفصالها عن الدولة وأن تعاليمها يجب ألاَّ تفرض من قبل هذه الأخيرة، و إنما يجب ان تقوم على قناعات حرة.

أكثر من ذلك فإنه يؤكد أنه لا يحق للكنيسة أن تكون دولة أَو جزءا من الدولة و إنما جماعة تقوم على الإيمان، ومع ذلك فمن واجبها أن تستشعر مسؤوليتها أمام الجميع وإلاَّ تنغلق على ذاتها. كما يجب عليها، بناء على حريتها الخاصة والأصلية، أن تتوجه إلى حرية الجميع بشكل يجعل القوى الأخلاقية للتاريخ (les forces morales de l'histoire) حاضرة وموجهة؛ ذلك أن الحرية المشتركة (la libérté commune)، يشدد البابا، لا يمكن تصورها دون قيم(17).

ويترسخ الوعي التاريخي بنسبية الحرية لديه بقوله: (لقد كنت دوما ضد الفكر اليوتوبي،

والإيمان بمجتمع مثالي كامل (une société parfaite)لأن ذلك يلغي مبدأ الحرية التاريخية)(18).

واتصالا بمبدأ الحرية تثار مسألتان على درجة بالغة من الأهمية؛ تتعلق أولهما بمدى تمتع المرأة بالمساواة الدينية مع الرجل, ويتعلق ثانيهما بمدى ديمقراطية تدبير الشأن العام الكنسي. فرغم أن جون بول الثاني قد سبق وأثار موضوع دور المرأة في الكنيسة, إلا أنه لم يتحدث عن المساواة بينها وبين الرجل. أما البابا الحالي فقد انتقد في رسالته حول "تعاون الرجل والمرأة في الكنيسة وفي العالم" النِزعة النسوية الراديكالية (feminisme radical) , أما الآن فإن مسألة دخول المرأة إلى سلك الكهنوت (La prêtrise) تبدو متوقفة على شرط الذكورة (clause) , ذلك أن الكنيسة الكاثوليكية تعتبر, أكثر من أي وقت مضى, أن القس إنما يتصرف باسم المسيح بوصفه رجلا. وبخصوص إمكانية أهلية المرأة للشماسة فقد تدارست اللجنة الدولية للثيولوجيا(L a commission internationale de théologie) مسألة شماسة المرأة في الكنيسة الكاثوليكِية (Diaconatdes femmes)) فكانت النتيجة سلبية بعد مشاورات واسعة, ليترك الأمر إلى السلطة التقديرية للبابا(19).

أما عن مدى ديمقراطية تدبير الشأن العام الكنسي فقد نبه روني ريمون (René Rémond) إلى ضرورة إدخال العديد من التعديلات على بنية وآليات اشتغال الكنيسة بحيث تخفف من نزعتها المركزية في اتخاد القرار وتعتمد نظاما لا مركزيا يستجيب للعديد من المتغيرات الموضوعيةِ, وفي مقدمتها ارتفاع عدد الكاثوليكيين من 800 مليون في أثناء بابوية جون بوا الثاني إلى أكثر من مليار. وما صاحب ذلك من ارتفاع مماثل في عدد الأبرشيات (Dioceses) . إذ كيف لحكومة بابوية مركزية (La curie) أن تدير وتؤطر كل هذا الكم من المؤمنيين والأسقفيات التي تتعددِ وتتباين مشاكلها وأولوياتها باختلاف بيئاتها وظروفها من أوروبا إلى أفريقيا ومن آسيا إلى أمريكا الجنوبية.خاصة وقد سبق لبول السادس أن كشف منذ (1971م) أنه لم يعد من الممكن بالنسبة للكنيسة أن تتبنى خطابا واحدا (Un discours unique) حول المشاكل الاجتماعية المتعددة والمتباينة بتباين الظروف الحاكمة لها. الأمر الذي يفرض ضرورة إعطاء الكنائس المحلية (Eglises locales)) والمؤتمرات الأسقفية (Les confèrences épiscopales) سلطة أكبر للتكييف والتقدير ((plus grand pouvoir d'adaptation et d'appréciation 20)).

خامسا: التحدي ما بعد حداثي (Le défi de la postmodernité)

بعد سقوط الأنظمة الماركسية وتراجع الخطر الشيوعي، الذي يرجع في جزء مهم منه إلَى الدور الفعال الذي لعبه الفاتيكان بزعامة البابا "جون بول الثاني"، أمسى الحديث يجري عن خطر جديد يتمثل تارة في التحدي المابعد حداثي وما يحيل إليه من فردانية ونسبية عدمية ولا مبالاة، وحلولية... وتارة في التحدي الإسلامي.

فحينما كانت الكنيسة الكاثوليكية تواجه عدوا محددا يعلن عداءه بشكل صريح للدين، فقد كان بمقدورها أن تأجج جذوة المقاومة الروحية والسياسية (résistence spirituelle et politique) التي أسهمت في استمرار حيوية الإيمان المسيحي. لكن بعد أن توارى هذا العدو تكرست أزمة ضعف الثقافة المسيحية إذ تعمقت الهوة باستمرار بين العقيدة الكاثوليكية (doctrine catholique) من جهة، وبين السلوكات الفردية من جهة أخرى، في ظل مجتمع بات يفتقر إلى الإرادة على حد تعبير نيتشة (Nietzsche).

وهو ما تجلى في تراجع عدد القساوسة في أوروبا من (174000 - 175000 سنة 1978م إلى 144215 سنة 2001م) ، و في تراجع نسبة الكاثوليك المعمدين (Catholiques baptisés) في أوروبا من (43،53% سنة 1978م إلى 41،14% سنة 1988م، وإلى 39،96% سنة 2001م). الأمر الذي جعل الكاردينال الفرنسي (Roger Etchegaray) يتحدث عن الإفلاس الأخلاقي(fallite morale) للكنيسة الكاثوليكية التي وجدت نفسها في مواجهة نمو متسارع لإسلام راديكالي على أراضٍ تعد تاريخيا مسيحية()[i].

ومع ذلك فإن (Jean- Pierre Dozon) يسجل أن هناك بعض الكنائس استطاعت أن تنتقل خلال العشرين سنة الماضية من ثيولوجيا التحرير إلى ثيولوجيا الرخاء والازدهار(22).

يعود رودولف فان تادن (Rudolf von Thadde) إلَى التاريخ ليخبرنا أنه بفضل الثورة الإصلاحية التي أعلنها مارتن لوثر في ألمانيا, وعمل كالفن على نشرها في باقي أوروبا أصبحت البروتستانتية (Protestantisme) أكبر قوة ثقافية في ألمانيا خلال القرن التاسع عشر؛ فقد كان جوته (Goethe) , وهيجل (Hegel) , ووكانط (Kant) كلهم بروتستانتيين. الأمر الذي جعل رجال الدين الكاثوليك يستنجدون بالفاتيكان, ويقعون في نزعة بالغة المحافظة والتطرف (Ultramontain) بحيث لم يكتفوا بمعاداة البروتستانتية وإنما أعلنوا عداءهم لليبرالية وللثورة الفرنسية, وللحداثة. وفي هذا السياق التاريخي لم يتردد رودولف في الجزم بأن البابا الجديد يندرج ضمن تقليد معاد للحداثة (une tradiction antimoderniste) ومعاد للعلمانية(Antilaïcisme)). والواقع أن علاقة الدين عموما بالحداثة ليس بهذه البساطة فجون فرنسوا كولوزيمو (Jean-François Colosimo) يؤكد أن الأصوليات لا تظهر في أي مكان. إنها النواة الباردة للتطور (Le noyau froid) والوجه الأسود للأنوار.. فالأصوليات الدينية التي تتوافر جميعها على البنية الشكلية نفسها تعد حديثة بشكل راديكالي (Les fondamentalismes religieux sont radicalement modernes).

سادسا: الموقف من الحوار العربي الإسلامي

يحتل مبدأ الحوار عموما مكانة مميَّزة في الخطاب الثيولوجي للبابا بنديكيت السادس

عشـــر, حيـث يمتـد لـديه ليشـمل؛ مـن جهـة أولى الحـوار المسـيحي المسـيحي (Le dialogueoecuménique), ومن جهـة ثانيـة الحوار الكـاثوليكي مع بـاقي الأديـان وفي مقدمتها الإسلام (Dialogue interreligieux), ومن جهـة ثالثة الحوار مع الملحدين أو غير المؤمنين.

ورغم الأهميـة الكبرى لنمطي الحوار الأول والثـاني إلا أن النمـط الثـالث من الحوار مع الملحـدين يعبر عن مـدى الإيمان المبـدئي بفضـيلة الحوار عند راتزنجر, الـذي يعتقد, كما سبقت الإشارة,بوجود قيم إنسانيـة مشتركة يتقاسـمها المؤمنون والملحـدون على حد سواء, يقينـا منه أنه كيفمـا كـان فهو كـائن أخلاقي. كمـا يـؤمن بضـرورة الوعي بـأن المجتمع الإنساني, بمؤمنيه وملحديه, يعيش في عالم واحـد, وأن للجميع فيه مسؤولية مشتركة إزاء كل ما يتهدده, وإزاء كل ما من شأنه أن يسهم في تطوره واستقراره..

ومع أنه بصـدور كتـاب راتزنجر الموسوم بـ " Dominus Iesus " الـذي كرس فيه أفضـلية الكاثوليكية على ما عداها من المذاهب والأديان الأخرى, واعتبار بعضهم أن ذلك قد شكل إيذاناً بتوقـف ديناميكيـة الحوار (La ḍynamique du diaḷogue), إلا أن جيرار دو كليرك (Gérard Leclerc), يـذهب إلى خلاف ذلك، يذهب إلى أن رتزنجر يصـدر عـن رؤيـة مبدئيـة وواعيـة للحـوار؛ تـؤمن بالاختلاف (L a reconnaissance rigoureuse des héritages particuliers), واحـترام الخصوصـيات (Les spécificitès) كما يعتبر أنه من الخطورة بمكان التصرف كما لو أن كل الاختلافات بين المذاهب والأديان قد انمحت(23).

وفي هذا السياق يجري التأكيد على أن تسريع الحوار الديني مع المسلمين بات يمثل أولوية مسـتعجلة أكيـدة في السـياق الحـالي للعولمـة (dans le contexte actuel de la mondialisation) لمواجهـة الإرهـاب الـذي جرف أقليـة مـن المسـلمين, حيـث شـدد الكاردينال وولتر كاسبر (Walter Kasper) الرئيس السـابق للمجلس البابوي من أجل وحدة المسيحيين على أن " كنيسة الغد لن تكون كنيسة منطوية على نفسها (replieé sur elle).. وإنما كنيسة منفتحة بشكل أكبر على الآخرين"(24).

ففي ظل الأزمة الحضارية المعاصـرة سواء على مستوى الثقافات الكبرى أَو على مستوى الأديان يجـدد بنديكيت السادس عشـر دعوته للمسـيحيين إلى تجاوز انكفائهم على يقينياتهم وهويـاتهم الخاصـة والإنفتـاح, بـدلا مـن ذلـك على مشاغـل الآخرين وقضايـاهم بأريحية وصراحة, سعيا لإبراز ما يبدو لهم (أي المسيحيين) عقلانيا وضروريا للإنسان..(25).

والواقع أنه رغم إيمان البابا الجديـد بضـرورة وأهمية الحوار مع الإسـلام, إلا أنه لا يخفي أن الـداعي الأساسـي إلى هـذا الحـوار هو أن الإسـلام أمسـى يمثل تحديا حقيقيا للمسـيحية داخـل أوروبـا وخارجها. ولا شك أن تأسيس أي حوار على الشـعور بالتحدي من شأنه أن يستدعي منطق الحرب الباردة, وما يستتبعها من رغبة دفينة من طرف أحد طرفي الحوار لاحتواء الطرف الآخر، والعمل على تحجيم قوته ونفوذه..

وهو ما يعبر عنه بجلاء موقف الفاتيكان عموما, وموقف البابا الرافض لطلب عضوية تركيا بوصفها دولة إسلامية لها ثقافة وقيم مختلفة فما دامت أوروبا، كما سلف الذكر، قارة ثقافية وليست قارة جغرافية، فإن تركيا -كما يؤكد راتزنجر- قد شكلت دوما قارة مختلفة على امتداد التاريخ, في مواجهة مستمرة مع أوروبا (en contraste permanent avec l'Europe) بداية من حروبها مع الإمبراطورية البيزنطية, وسقوط القسطنطينية, وحروب البلقان, وتهديد كل من فيينا ,والنمسا، ومن ثم فإن المماهاة بين القارتين سوف تشكل خطأ كبيرا سوف يؤدي أو يختفي فيها الثقافي لمصلحة الإقتصادي (La disparition du culturel au profit de l'economie). غير أن هذا لا يحول، حسب جوزيف راتزنجر, دون إرساء أسس شراكة وتعاون وثيق يسهم في بزوغ تركيا قوية ضد كل أشكال الأصولية؟

ولعلها الازدواجية التي جعلت (Guy sorman) يرصد وجود مأزق في مفهوم الكاثوليكيين للحوار يتجلى في المفارقة التالية: بينما يرقى الوعي بالحوار وأهميته إلى مستوى الضرورة الوجودية التي بدونها تظل الكنيسة معرضة لخطر الإنحلال والذوبان(26), نجد أن راتزنجر يصدر عن تصور معياري ثنائي للعلم يشمل من جهة الكنيسة الكاثوليكية كرمز للخير, ويشمل منهجة أخرى للملحدين (Les atheé), والمائعين (Les mous), والبربريين (Les Barbares) الذين يبحثون عبثا عن أخلاق بدون إله, أو عن آلهة مزيفة(27).

****

الحواشي

1- لقد أثار اسم بونوا السادس عشر ردود فعل مختلفة منها من ذهب إلى حد القول بأن اعتبار البابا الجديد أن سلفه بونوا الخامس عشر كان بمثابة رسول للسلام (Un apôtre de la paix) قول يمعن في التعمية علينا وتضليلنا, متجاهلا أنه كان معاديا لكل ماهو فرنسي (francophobe) انظر:

," "L’autre Benoît ,pape selon Benoît francophobe, Yves Lemoine- 35. Liberation,22Avril,2005,p:

"L’Europe,l’Amérique, Régis Debray et Jean-François Colosimo -2 ." et les passions religieuses

Sophie De Ravinele , “ Ce qui attend le nouvau Pape “ , Le - 3 Monde , 23 Avril.

"Ratzinger et Jeunesses, Daniel schneidermann - 4 Libiratio ,22Avril 2005.,hitlériennes"

Le Monde , 29 Avril," "Le monde selon Benoît, Guy sorman - 5
,2005.

Joseph Ratzinger ," Exclure la religion ,C'est mutiler l'être - 6 humain ", Propos recueilles par: Jean sévillia ,Le Figaro ,Samedi 30 Avril ,2005.

Ibid, « si ce sont les majorités qui definissent les regles morales - 7 ,une majorité peut édicter demain des reglescontraires aux regle » d'hier

8-Joseph Ratzinger ," Quel avenir pour l'Eglise ?",des extraits , Le figaro, 21 Avril , 2005.

9-Joseph Ratzinger et Paolo Flores D'arais ," La foi est-elle compatible avec la raison ?" ,Le Monde , Lundi , Mai ,2005.

Ibid. - 11

Joseph Ratzinger ," Exclure la religion ,C'est mutiler l'être - 12 Op.Cit.," humain

Le," "Des réticences sur la laïcité absolue , Joseph Ratzinger - 13 Monde 24L25 Avril ,2005.

"Pour un protestant ,il n'y a pas de,Rudolf von Thadden - 14 Le Monde ,," chrètienté sans les lumière de Luther sans Kant 22,Avril ,2005.

Joseph Ratzinger , " La foi chrètienne a son mot a dire sur la - 15 morale " ,Le Figaro ,20 Avril, 2005.

Le ,Benoît XVI et la laïcité à la française" ", Bernard Stasi - 16 Figaro ,26 Avril, 2005.

-17Joseph Ratzinger , " on ne peut pas vouloir de la libérté pour soi .seul "Le Monde , 24/25 Avril 2005

- Joseph Ratzinger ," Exclure la religion ,C'est mutiler l'être 18 humain ", Op.cit.

Ibid., Ledéfit de l’evangélisation" ", Hevré Yannou -19

Propos , " "I l faut décentraliser l’Eglise, René Rémond - 20
recueillis par Marie-Laure Germon ,8Avril, 2005.

Sophie De Ravinele , “ Ce qui attend le nouvau Pape “ , Op.Cit. - 21

22Ibid.

"Une théologie qui veut concilier la foi et la , Gérard Leclerc - 23
Le Figaro , 21 Avril ,2005.,raison"

Ibid.," " , Hevré Yannou -24

Joseph Ratzinger et Paolo Flores D'arais ,” La foi est-elle - 25
compatible avec la raison ?” ,Op.Cit.

"P o u r que Op.Cit," "L e monde selon Benoît, Guy sorman - 26
L’Eglise reste L’Eglise , sans se dissoudre dans le siecle .le dialogue entre Benoît et les autres religions devrait être d’autant plus courtois."

Op.Cit.," "Le monde selon Benoît, Guy sorman - 27